التشخيص – المصطلح والتأصيل وموقف بعض الدارسين منه

أ.م.د. جاسم عبد الواحد راهي

التشخيص: المصطلح والتأصيل وموقف بعض الدارسين منه.

المقدمة:

التشخيص: مصطلح مستحدث، لم يرد في كتب القدماء محدداً على الرغم من كثرة هذا الفن في التراث الأدبي العربي، بل جاء الحديث عنه متداخلاً مع فنون البلاغة الأخرى، وهو في كتب البلاغة العربية أدخل في باب الاستعارة ((لأن المفردة المشخصة تستعار من الإنسان للجماد، لِبث روح فاعلية الإنسان في الأشياء))[١] وفي هذا النوع من الاستعارة نرى أن التشخيص يحقق صعوداً بالأشياء لتأخذ صفات بشرية تساعدها على التأثير.

يحقق التشخيص جانباً جمالياً بفضل ما يتركه من تأثيرٍ نفسي عند القارئ فيختلط عنده الشعور بالغربة والانعزال. لأن التشخيص يجعل الأشياء كائنات عاقلة أو أشخاصاً يشعر المرء بمشاركتها الوجدانية وبهذا يتوحد المرء مع الأشياء[٢].

الذي نريد تبيانه في هذا البحث هو أن هذه السمة الأسلوبية أو الظاهرة الفنية موجودة في بلاغتنا العربية ومعروفة عند الشعراء الجأهليين والنقاد العرب القدامى والبلاغيين فضلاً عن ورودها في كتاب الله العظيم القرآن الكريم، وأن ورودها في أشعارهم وكتبهم، يكون رداً على من زعم أن مصطلح التشخيص محدث وهو من صنع الثقافة الغربية هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإننا نريد أن نبين رأي النقاد العرب القدامى وموقفهم من هذه الظاهرة. إذ تناولوها وقد كان لهم معها موقفان: الأول مؤيد لها والآخر يرفضها. وقد تبين هذا الموقف عند حديثهم عن جودة الشعر.

وقد اقتصرنا في بيان هذه المسألة على ذكر أربعة من النقاد العرب القدامى وهم الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وابن طباطبا العلوي(ت٣٢٢هـ) وقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وكان وراء هذا الاختيار سبب محدد في ذهن الباحث، وهو تنوع ثقافة هؤلاء النقاد إذ إن الباحث يعتقد أن المرجعيات الثقافية تكون محركاً لأراء النقاد والبلاغيين وقد تنوعت ثقافة هؤلاء العلماء فالجاحظ وابن طباطبا العلوي أصحاب ثقافة كلأمية، وقدامة بن جعفر ذو ثقافة فلسفية، وعبد القاهر الجرجاني جمع بين الثقافة الكلأمية والثقافة الفلسفية، وبذلك يتم استيفاء جميع المرجعيات المعرفية لدى النقاد لبيان دورها في تحديد أرائهم ومواقفهم النقدية من ظاهرة التشخيص .

التشخيص لغةً واصطلاحاً :

لكي نتحدث عن مصطلح التشخيص بوصفه مصطلحاً نقدياً أو بلاغياً لابد من الرجوع إلى المعجم العربي لمعرفة الأصل المادي للتشخيص ومعرفة ما يحتفظ به من الحسية. فالتشخيص في اللغة من الشخص وهو سواد الإنسان إذا رأيته من بعيد. وكل شيء رأيت جسمانه من بعيد فقد رأيت شخصه[٣].

ويقال شخص الجرح: إذا ورم. وشخص بصر فلان: إذا فتح عينه وجعل لا يطرف. وشخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق، ويقال شخصت الكلمة في الفم: إذا ارتفعت نحو الحنك الأعلى[٤]. وفي المعجم الوسيط ((الشخص: كل جسم له ارتفاع وظهور، وغلب في الإنسان)) [٥]. وشخّص الشيء إذا عينه ومنه تشخيص الأمراض عند الأطباء. وشخص النجم إذا طلع[٦].

أما الدلالة الاصطلاحية لمصطلح التشخيص فلم تخرج كثيراً عن الدلالة اللغوية وقد اشتق من فعل شخص الذي يدل على الوضوح والظهور، والشخص التي تخص الإنسان. لأنها تشير في اغلبها إلى سواد الإنسان، ولهذه الإشارة قيمة عالية في تحديد الدلالة الاصطلاحية لأنها كانت قريبة من المعنى اللغوي. فقد عُرف التشخيص بأنه: ((إبراز الجماد أو المجرد من الحياة، في ضوء الصورة بشكل كائن متميز بالشعور والحركة والحياة)) [٧]. وبهذا التعريف يتضح أن الظاهرة تتحقق في الكلام في ضوء إضفاء بعض السمات الإنسانية على الجمادات والمجردات. وهو تعريف يفتقر إلى الشمول لأن الأمر في التشخيص أوسع من ذلك، فقد تتعدى مسألة إضفاء بعض السمات أو الصفات الإنسانية في الجمادات أو المجردات إلى إضفائها على الحيوان والطبيعة وغيرها من الموارد التي يتم منحها صفات البشر.

ويعرف التشخيص أيضاً بأنه ((نسبة صفات البشر إلى أفكارٍ مجردة أو أشياء لا تتصف بالحياة)) [٨]. ومن المعروف أن الأفكار المجردة هي المعنويات وأن الأشياء التي لا تتصف بالحياة هي الجمادات وبهذا يكون هذا التعريف كسابقه يفتقر إلى الشمول لأنه لم يتوسع بالمفهوم إلى تشخيص الطبيعة حتى نتمكن من ((مخاطبة الطبيعة كأنها شخص تسمع [وتتكلم] وتستجيب في الشعر والأساطير))[٩]. والطبيعة من الجوانب الحيوية الأساسية والمهمة التي لا يمكن للإنسان الاستغناء عنها لأنه جزء منها ومن المعروف أنها ليست جماداً لأنها تتسم بالحياة وهي ليست أمراً مجرداً لأنها تدرك بحواس الإنسان المعروفة .

وهذا تعريف كسابقيه لم يستوف جميع موارد التشخيص. إلا أن هناك تعريفاً جامعاً وشاملاً لكل موارد التشخيص يرى أنه ((طريقة سردية تقوم على نعت موضوع / وحدة مجردة / كائن غير إنساني بنعوت تسمح باعتباره فاعلاً يمتلك برنامجاً سردياً))[١٠]. ويتحقق شمول هذا التعريف في ضوء ذكره تشخيص الكائن غير الإنساني وامتلاكه القدرة على السرد. وهذا التحديد يشمل الطبيعة والحيوانات أيضاً عن طريق إكسابها الصفات الإنسانية. وهذا توسع في الكلام لا محالة، وهو من باب المجاز الذي يساعد على التخيل. والتشخيص من الفنون التي تساعد على توصيل الكلام بل هو نوع من التخييل البعيد[١١]. الذي يخلق نمطاً من الخطاب العجائبي، فبه تكتسب الجمادات والمجردات والطبيعة والحيوانات صفات آدمية تشترك بها معهم، وتأخذ منهم، وتتبدى لهم في شتى الملابسات وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين أو يتلبس به الحس[١٢].

فالتشخيص هو إضفاء صفات الإنسان على الجمادات والحيوانات باستعارات مكنية، وهو يختلف عن التجسيم الذي هو إضفاء صفات مادية لكل ما هو معنوي غير مدرك فتخرجه من عالم التصور إلى عالم الإدراك وكذلك يختلف التشخيص عن التجسيد الذي هو المسمى الثاني للتجسيم ويكون في الأدوار والمواقف، لذا ينبغي ملاحظة الحدود والتفريق بين المصطلحات. فالتشخيص اخص من التجسيم. لان التجسيم يعني تصوير المعاني بمحسوسات، أي نقا المجرد إلى حسي. وربما لا يتخذ حركة أو شعوراً بشرياً، لتبيين المعنى، أما التشخيص فلا يقتصر الأمر فيه على جعل المعنوي مرئياً ملموساً بل تضاف إليه الصفات الآدمية. أما التصوير فهو شاملٌ للتشخيص والتجسيم.

موارد التشخيص في الأدب العربي

مما لا شك فيه أن ظاهرة التشخيص موجودة في تراثنا الأدبي وقد وردت لدى شعراء الجأهلية فضلاً عن شعراء العصور اللاحقة. من ذلك ما نجده في شعر امرئ القيس في قوله:

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل(١٣).

فالشاعر هنا يشخص الليل ويستوفي له جملة أركان الشخص فيجعله رجلاً يُنظر إليه، وجعل له صُلباً يتمطى به، وعجزاً رديفة للصلب، وكلكلاً؛ أي صدراً ينهض به. فالشاعر يحقق كل معاني الثقل التي تراكمت وظهرت بموج البحر وما يحمله من تدافع وتتابع وستور من خلال تشبيهه بالليل وقد شخصه ليرسم دلالة الجزع والصبر الذي يحملها الشخص الذي يبتلى بجملة من الهموم(١٤). وهذا التفصيل في القول يترك أثراً جميلاً في قلب سامعيه.

ومن شعراء الجأهلية الذين استعملوا اسلوب التشخيص: (تأبط شراً) بقوله

إذا هزه في عظيم قرنٍ تهلّلت نواجذ أفواه المنايا الضواحكِ(١٥).

معنى البيت أن المنايا تفرح عند هزّة السيف وكمال الفرح إنما يظهر بالضحك الذي تبدو معه النواجذ في الأفواه الضاحكة. فالشاعر أعطى للمنايا أكثر من صفة إنسانية. كالنواجذ، والأفواه، وحركة الضحك. وهذه كلها من السمات الإنسانية. وبذلك تبرز روعة التشخيص للمنية في هذا البيت

وظاهرة التشخيص كانت معروفة لدى الشعراء القدامى ولم يخلُ منها الشعر العربي في كل أزمانه وقد وردت في شعر حسان بن ثابت الذي رسم صورةً استعارية تجلت فيها المبالغة في وصف شجاعة الممدوح، في قوله:

هو الفارس المشهور والبطل الذي يصول إذا ما كان يومٌ مُحجّل

إذا كشفت عن ساقها الحرب حشّها بأبيض سبّاق إلى الموت يُرفل(١٦).

فحسان بن ثابت يشخص (الحرب) ويجعل للحرب ساقاً تكشف عنها. دلالةً على الظهور والبروز. وهذا التعبير مرتبط بساق بلقيس ملكة سبأ، وهو مستوحى من قوله تعإلى: ((وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا)) (١٧). في قصة بلقيس ودخولها على النبي سليمان ـــ عليه السلام ـــــ فحسبت صحن القصر ماءً غامراً وكان من زجاج ابيض، فكشفت ساقها لتخوضه، فظهرت لسليمان ـــ عليه السلام ـــــ ما كانت تخفيه. وكذلك يشخص عدي بن الرقاع العاملي (الحمد) إذ يقول :

وأبى الحمد أن يحالف قوماً غيرهم فهو صائرٌ حيث صاروا(١٨).

فالشاعر جعل (الحمد) في هذا البيت رجلاً صاحب قرار لا يحالف من الأقوام إلا قومه ومعلومٌ أن (الحرب) و (الحمد) أمورٌ معنوية لذلك لم يقتصر الشعراء القدامى على تشخيص المحسوسات فقط بل كانت هذه الظاهرة تشمل المجردات لديهم. وكانت نصوصهم الشعرية زاخرة بتشخيص المجردات والمحسوسات وغيرها.

ومن التشخيص قول ابي الطيب المتنبي:

خَميسٌ بشرق الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ وفي أُذن الجوزاءِ منّهُ زَمازم[١٩].

فالمتنبي جعل (الجوزاء) ـــــ وهي جرم سماوي ـــــــ تسمع، على عادة من يجعل النجوم تعقل، وتوصف بما يوصف به الناس ، لهذا جعل الشاعر لها (الأُذن) التي يكون بها السمع عندهم، وهذا من المبالغة التي تحرك الشعور وتترك أثراً نفسياً عميقاً.

ونجد التشخيص في مقطوعة شعرية للسري الرفاه[٢٠]. في وصف الساقية التي يقول فيها:

فمن جنانِ تريك النور مبتسما في غير ابانه والماء منسكبا

فجمال هذا القول كان بفضل ما به من التشخيص في النور الذي شبهه بالإنسان وحذفه ورمز اليه بالابتسام.

موارد التشخيص في القرآن الكريم

ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة التشخيص لم يقتصر ورودها على الشعر العربي بل جاءت في القرآن الكريم إذ تضمنت كثيراً من آياته المباركة، هذه الظاهرة شكلت لمحة مميزة جاءت في أسلوبه المعجز، من ذلك قوله تعالى: ((**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**)) [٢١]. فان في الآية تصويراً عجيباً لطبيعة الكون وتقلبه بين الظلام والنهار حيث شبه الصبح بإنسان ثم حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه دليلا عليه وهو التنفس وهو خروج النسيم من الجوف. فكأن الصبح ينبلج من رحم الأفق لتنبلج معه الرسالة الإلهية في أفق الوحي. وقوله تعالى: ((**وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ**)) [٢٢]. وهنا تحقق كلمة (سكت) خصوصية التشخيص لوجود الصفة الآدمية فيها. وفي قوله تعالى: ((**إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ**)) [٢٣]. يتحقق التشخيص في كلمة (شهيقا) ويجعلها صفة لجهنم. وحقيقته الصوت الفظيع الذي يشبه صوت الباكي. وكذلك يظهر التشخيص في قوله تعالى ((**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**))[٢٤]. وتشخيص جهنم يجعل المشهد حافلاً بالحياة والحركة فشبه جهنم بانسان نطق في الدلالة على المقصود ولم يصرح بلفظ المشبه به، بل ذكر لازمه وهو القول لتقوم الدلالة به، ومعلوم أن الكلام هو من خصائص البشر.

لقد التفت النقاد القدامى إلى وجود هذه الظاهرة في القرآن الكريم وأول من أشار إلى مفهوم التشخيص هو أبو عبيدة(ت٢٠٧هـ) في كتابه مجاز القرآن وذلك عندما تحدث عن قوله تعالى ((**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**)) [٢٥]. وكذلك قوله ((**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**)) [٢٦]. فقال: ((ومن المجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظة خبر الإنسان)) [٢٧].

لقد تنبه أبو عبيدة إلى اختصاص(أولئك) وكذلك (السجود) بالإنسان. والمجاز عنده كل ما يجوز في اللغة من حذف وإيجاز وإسناد وتشبيه واستعارة وغير هذا. ولم يقف الدارسون على مثل هذه الآيات في باب المجاز فقط

إذ نجد مثل هذه الآيات في باب الاستعارة كقوله تعالى ((**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**)) [٢٨]. فنجد أن البيان القرآني استعار السباحة للكواكب فجعلها عالقة مما يدل على طواعيتها وتفهمها لأمرِ خالقها.

لقد وقف الدارسون لمثل هذه الآيات على البعد النفسي الذي تحققه. ووجدوا فيها توسعاً عادياً من قبيل الاستعمال اللغوي المجازي مع أن المجاز لا يختلف عن باب الاستعارة. فإذا كان المجاز مرسلاً فهو استعارة. والمرسل ما أرسل عن قيد التشبيه. وكذلك التشخيص فهو استعارة معقول لمحسوس هذا ما أكده ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) عند تناوله قوله تعالى: ((**ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**)) [٢٩]. إذ يرد ابن قتيبة القول إلى حيّز الحقيقة لتوضيح المعنى[٣٠]. ((ونسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع لأنها جماد، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد)) [٣١].

وهنالك آيات في ذكر جهنم وتصوير أهوالها. أسبغ البيان القرآني عليها صفات جديدة . لتفجير طاقة التأثير لما فيها من خيال ومن تلك الآيات قوله تعالى: ((**إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**)) [٣٢]. يقول الرماني: ((شهيقاً حقيقته صوتاً فظيعاً كشهيق الباكي. والاستعارة أبلغ منه وأوجز)) [٣٣]. فالرماني أحس بالصفة الآدمية التي جعلت من النار إنساناً يبكي من الغيظ. وهذا توسع في الكلام ومن باب الاستعارة المساعدة على التخييل. وفيه تبرز فائدة التشخيص من أنه يمتلك مخزوناً مؤثراً في توسيع رقعة الخيال لدى المتلقي وليس تلك النقلة العاديّة في مجال الاستعارة بل أن هذه النقلة تعني التحول من مجال الإخبار إلى مجال الرؤية بواسطة الخيال، فيضاف هنا إلى مسألة الإخبار مسألة أخرى وهي عمق التأثير[٣٤].

ولم تقتصر حدود ظاهرة التشخيص على الاستعمال القرآن الكريم فحسب بل وجدت في كلام النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في قوله ((قد جدع الحلال انف الغيرة))[٣٥]. وكذلك وردت في كثير من كلامه عليه الصلاة والسلام وكذلك في خطب خلفائه وصحابته رضي الله عنهم. ومنه قول الإمام علي ـــ عليه السلام ـــ في كتابه إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة يقول: ((ارغب راغبهم واحلل عقد الخوف عنهم)) [٣٦] فقد شخص الخوف على هيئة قيد يغل أعناق الناس وأيديهم فيمنعهم عن الحركة.

موقف بعض الدارسين من ظاهرة التشخيص

لقد أخذت هذه الظاهرة مجالاً واسعاً في الموروث الأدبي بمختلف أنواعه. وكان الدارسون لها قد وقفوا على المعاني الجديدة التي تعطيها للجملة وقد ركزوا على أهمية الظاهرة على الرغم من اختلافهم في تسميتها وإن كانت هذه المسألة شكلية لأن اختلاف التسمية لم يقف عائقاً في كشف الإيحاء والتخييل. وكذلك دور هذه الظاهرة في جلاء الفكرة في الأسلوب القرآني. إلا أن الظاهرة أخذت اتجاهاً آخر عند نقاد القرن الرابع الهجري. إذ أدخلوا هذه الظاهرة في إطار مسألة الصدق والكذب في الشعر وقبل نشوء هذه المسألة لم يدخلها المتذوقون لها في إطار هذه القضية. لأن هذه القضية لم تكن، ولم يكن الصدق في الشعر موضع تفكير عندهم بل كانوا يعتقدون أن شعراءهم ((كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاءاً وافتخاراً ووصفاً وترغيباً وترهيباً إلا ما قد أحتمل الكذب فيه في حكم الشعر. من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه)) [٣٧]. فلما نشأت قضية الصدق والكذب وذلك بعد اتجاه الشعراء إلى المبالغة في صفات المديح . فوجد

منهم من يبالغ ويفرط في القول. وقد ساعد في ذلك اتساع معاني المديح فجعل الشعراء يحيطون الممدوح بهالة قدسية ويخرجون به من البشر إلى ما فوق البشر وصاروا يمدحون الناس بما ليس فيهم ابتغاء عرض من أعراض الدنيا وأنهم إذا ضاقت المعاني في وجوههم مالوا إلى المبالغة والغلو، لكي يتسع لهم ميدان القول، كل ذلك كان سبباً إلى تفكير النقاد في وضع معيار لهذه الظاهرة فكانت قضية الصدق والكذب ذلك المعيار وبذلك أخذت ظاهرة التشخيص اتجاهاً جديداً فوقف النقاد من هذه الظاهرة موقفين:

الأول: يرى أن هذه الظاهرة من مميزات الأسلوب الأدبي وتعد من الأمور التي تميّز الشاعر وتقدمه وتكشف عن قدرته على التصوير والتخييل. وهذا ما يزيد من جودة الشعر باعتبار أن الشعر يتحقق في الصورة المبتكرة . ولا بأس على الشاعر حين يتخيل ولا يتقيد في الواقع [٣٨]. وهذا الاتجاه من النقاد لم يطالبوا الشاعر بالتقيّد بالواقع أو ما يسمى بالصدق الفني .

أما الاتجاه الآخر من النقاد فيرى أن هذه الظاهرة تدخل الشعر في باب المبالغة والغلو مما يفقده مقياس الجودة وهو الصدق الفني الذي جعلوه شرطاً في جودة الشعر فأرادوا من الشاعر أن يكون شعره مقيداً بالواقع وأن تدل العبارة على مدلولها دلالة حرفية .

لقد كان وراء اتجاه النقاد هذا من ظاهرة التشخيص جذور معرفية وعوامل ثقافية حددت موقفهم وآراءهم النقدية فيما يتعلق بهذه الظاهرة سواء أكانت هذه الجذور ثقافية تتمثل بتأثر هؤلاء النقاد بالثقافة اليونانية أم جذور عقيدية تتمثل برؤية الدين الإسلامي وتعاليمه. إذ أكد الإسلام مسألة تنظيم مناحي القول ولم يقرّ الكذب بل أراد الإسلام من الشاعر أن يقول ما يفعل أي يقيد كلامه بما يتحقق [٣٩]. فقال تعالى: **((وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ))** [٤٠]. وهذه دعوة للشعراء إلى الابتعاد عن الكذب. وقد نظر النقاد إلى التشخيص على انه من الشعر الكاذب.

أما الجذور الثقافية فقد كان للثقافة اليونانية الأثر الكبير في توجيه الرؤى النقدية لدى بعض النقاد. وتأثرهم بمؤلفات أرسطو طاليس، وأهم هذه المؤلفات كتابان مهمان؛ الأول في الشعر، والآخر في الخطابة .

لقد جعل بعض النقاد والفلاسفة العرب هذين الكتابين مرجعاً لهم في الحديث عن الشعر. إذ يرى أرسطو أن الشعر مادة متخيلة في عبقرية الشاعر [٤١]. وتتمثل هذه العبقرية في مسألة بث الحياة في الجمادات وقد أطلق أرسطو على هذه الظاهرة مصطلح (التغيير) فهو يرى ((أن معظم التعبيرات الرشيقة تنشأ عن التغيير)) [٤٢]، لذلك عدّ هذه الظاهرة من وسائل تجميل الأسلوب الشعري .

إن هذه الرؤية التي تذهب إلى أن الشعر مادة متخيلة نجد أثرها عند بعض الفلاسفة العرب أمثال الفارابي وابن سينا وغيرهم من الذين اهتموا بالخطابة والشعر. فكان الفارابي أحد الفلاسفة الذين جعلوا الكلام عن الخطابة والشعر جزءاً من منهجهم الفلسفي العام[٤٣]، وقد ألف كتاباً كبيراً في الخطابة يقع في عشرين مجلداً وله كتاب آخر في صناعة الكتابة، وكلامٌ في صناعة الشعر والقوافي.

والذي يعنينا هنا هو حديثه عن الشعر، والذي جاء على أجزاء. فتحدث عن مسألة المحاكاة. وأن الشعر لا يصير شعراً إلا بالمحاكاة. والمحاكاة عنده من التخييل. والقول المحاكي ضربان: ضرب يخيّل الشيء نفسه. والآخر يخيّل وجود الشيء في شيء آخر ويدخل في هذا الضرب ظاهرة التشخيص[٤٤].

وكان الفارابي قد جعل الشعر قسماً من المنطق وذلك عندما قسم الأقاويل على أقاويل برهانية وأقاويل جدلية وأقاويل خطبية وأقاويل سوفسطائية وأقاويل شعرية. وعنده أنَّ الأقاويل البرهانية صادقة كلها لا محالة. أما الجدلية فانَّ صدقها أكثر من كذبها والأقاويل الخطبية صدقها مساوٍ لكذبها والأقاويل السوفسطائية صدقها اقل من كذبها أما الأقاويل الشعرية فإنها كاذبة كلها لا محالة [٤٥].

أما ابن سينا فقد استمد بعض ثقافته الفلسفية من أرسطو ولاسيما حديثه عن الشعر إذ أنه أدخل عنصر الخيال في الشعر بل جعله قوامه. وذلك عندما عرفه فقال: ((إن الشعر هو كلام مخيّل مؤلف من أقوال موزونة متساوية. وعند العرب مقفاة))[٤٦].

ولما كان التخييل جوهر الشعر فإن ((التشخيص ينقل الصورة من مجرد الإخبار الذي يحتمل الصدق والكذب إلى تخيّل مشاهدة أحداثها ووقائعها مما يوهم المتلقي أنَّ ما هو مبني على الظن أصبح يقيناً))[٤٧]، من هنا أدخل النقاد مسألة التشخيص في حدود قضية الصدق والكذب بوصفه ضرباً من ضروب التخييل إذ ذهب بعضهم إلى أن الأقاويل المتخيلة أقاويل كاذبة لا تعبر عن الواقع .

يعد الجاحظ (ت٢٥٥هـ) من النقاد الذين أشاروا إلى ظاهرة التشخيص وذلك في حديثه عن أقسام البيان التي حصرها في ((خمسة أشياء لا تزيد ولا تنقص أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة)) [٤٨]، ويوضح الجاحظ تلك الأقسام ثم يصل إلى البيان بالنصبة فيقول: هي ((الحال الناطقة بغير لفظ والمشيرة بغير اليد))[٤٩]، فدلالة الشيء على معنى ما . يعني إخباره عن ذلك المعنى وإنَّ كان صامتاً أو معجماً وبذلك يحدد الجاحظ ظاهرة التشخيص عندما ذكر أمثلة عدة[٥٠]، على هذا النوع من البيان مثل قوله: سل الأرض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإن لم تجبك حواراً إجابتك اعتباراً .

والحقيقة أن الأرض لا تعقل السؤال. ولا تستطيع الكلام إلا أن المتكلم يستعمل أسلوب التشخيص لتحقيق البيان عن طريق ذكر معاني الأشياء بواسطة الفكر والنظر.

فالجاحظ يرى في ظاهرة التشخيص صورة من صور البيان التي تحقق الاتساع في التعبير اللغوي. ويخرّج هذه الظاهرة على إنها نوع من أنواع المجاز والذي يعدّه من مفاخر العرب في لغتهم فيقول ((والعرب تتوسع في كلامها، وبأي شيء تفاهم الناس فهو بيان إلا أن بعضه أحسن من بعض))[٥١].

إن هذا الموقف المؤيد لظاهرة التشخيص من قبل الجاحظ تكمن وراءه جذور معرفية تمتد إلى الفكر الاعتزالي الذي كان الجاحظ أحد الرؤوس الأساسية في ذلك الفكر. ولا يخفى دور المعتزلة في وضع أصول البلاغة والبيان[٥٢]، وتميز المعتزلة بالنظر العقلي والاحتكام إلى العقل في فهم النصوص. فإن خالف المنقول حكم العقل أولوه حتى يعود منسجماً مع أحكام العقل. فكان التأويل من أهم الأسس التي قام عليها المذهب الاعتزالي لذلك قالوا بالمجاز في تأويل بعض النصوص لتقرير مبادئهم وأصولهم وآرائهم.

ومعلوم أن التشخيص أحد صور المجاز لهذا لم يستطع الجاحظ إنكاره بل جعله أحد الأسلحة التي يدافع بها عن آرائه الكلأمية لأنه الوسيلة التي يُوفق عن طريقها بين مبادئه الاعتزالية وبين نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف. فوجد المعتزلة في هذا الأسلوب دعامة كبيرة لمذهبهم وأساساً متيناً لتأويلاتهم. كتأويلهم قوله تعإلى: ((**الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**)) [٥٣]، وقوله تعإلى ((**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**))[٥٤]، التي يبرز فيها تشخيص الذات الإلهية .

وفي الوقت الذي أيّد فيه الجاحظ أسلوب التشخيص نجد أنَّ ابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) ينصح الشعراء بالابتعاد عن هذه الظاهرة. وذلك في حديثه عن المجاز فيقول ((وينبغي للشاعر أن يتجنب الإشارات البعيدة والحكايات الغلقة والإيماء المشكل، ويعتمد ما خالف ذلك ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولا يبتعد عنها)) [٥٥]. فيجعل العلوي تجنب مقياس الصدق سبباً لموقفه الرافض للظاهرة . ويذكر لهذا الموقف شواهد عدّة[٥٦]، منها قول الشاعر على لسان ناقته يصف حالها

تقولُ وقد درأتُ لها وضيني أهذا دينه أبداً ودِيني

أكلُ الدهرِ حلٌ وارتحالٌ أما يُبقي عليّ ولا يقيني

ولاشك أن إنطاق ما لا ينطق من التشخيص وأن الحكاية عن ناقته من المجاز الذي يعده ابن طباطبا مباعداً للحقيقة،وانه((من الإيماء المشكل الذي لا يفهم)) [٥٧].

ومن الشواهد التي عابها ابن طباطبا وعدها من الإيماء المشكل قول الشاعر:

أومت بكفيها من الهودجِ لولاك هذا العام لم أحجج

أنت إلى مكة أخرجتني حباً ولولا أنت لم أخرج

فالشاعر شخص (الايمائة) وجعلها تقول كل هذه المعاني وهذا لا يرضي ابن طباطبا لأنه ((يريد من الشعر أن يكون صادقاً كما يكون صاحب الخبر صادقاً)) [٥٨] ، ويبدوا الأثر الكلامي واضحاً في موقفه النقدي من الشعر عموماً ومن ظاهرة التشخيص على وجه الخصوص ذلك أنَّ ابن طباطبا العلوي ذو ثقافة عقلية وفقهية وأصحاب الثقافة الفقهية يُعنيهم صحة الخبر وصدقه لذلك اشترط ابن طباطبا في جودة الشعر أن يكون صادقاً لأن المتكلمين وأصحاب النظر العقلي يقيدون الأمور بالواقع لذلك قيدوا الشعر بالواقع كما يقيد الفكر بالحقيقة وظاهرة التشخيص هي ضرب من ضروب التخييل الذي يبتعد به المتكلم عن الحقيقة .

ولا شك في أن تقييد الشعر بالحقيقة والصدق تقييدٌ للشاعر وإلزامه التخلي عن خياله، والذي يعد الأمر الأساس في إبداع الشاعر.

وترد ظاهرة التشخيص عند قدامة بن جعفر(ت ٣٣٧هـ)وذلك في حديثه عن المعاني. إذ يجعل ظاهرة التشخيص نوعا من الاستعارة تسهم في جودة الشعر ((وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول والمجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة كهذه [يعني ظاهرة التشخيص] وفيها لهم معاذير إذ كان مخرجها مخرج التشبيه))[٥٩].

وقد ذكر هذا القول بعد أن أورد أبياتاً تتضمن ظاهرة التشخيص ومنها قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل[٦٠]

فهو يرى أن الشاعر ((أراد أن هذا الليل في تطاوله كالذي يتمطى بصلبه)) [٦١]، أي الشاعر يشخص من الليل رجلاً يتمطى بصلبه.

ومن الأبيات التي ذكرها قدامة بن جعفر وأشار فيها إلى أسلوب التشخيص قول ابن هرمة.

تراه إذا ما أبصر الضيف كلبه يكلمه من حبه وهو أعجم [٦٢]

فيقول قدامة: إنَّ ((الشاعر أعطى الكلب صف الكلام)) [٦٣]. وهذا عنده من المعاني المتخيلة للشاعر. وبذلك يتضح موقف قدامة بن جعفر المؤيد والمشجع لظاهرة التشخيص لأنه يبيح للشاعر ما شاء من المعاني ويرى ((أن المعاني كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم منها في ما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة)) [٦٤] .

لقد أفاد قدامة بن جعفر من الثقافة اليونانية وطبقها على الشعر فكان له موقفٌ نقديٌ يبيح للشاعر فيه الكذب في الشعر لأن الشعر عنده لا يكون في المعنى. فالمعاني ثابتة. إنما الشعر يتحقق بالصياغة ولا يضر في الشعر إن سلك الشاعر سبيل الغلو والإفراط ، بل إن قدامة بن جعفر لا يقيد الشاعر بالواقع ولا يعنيه الصدق لأن الصدق يتصل بالموضوع . ولا يصير الشعر عنده شعراً بالمعاني العامة إنما يصير شعراً بالصور المتخيلة والتشخيص هو أحد أنواع هذه الصور التي يتخيلها الشاعر. التي يؤثرها قدامة إذ يقول ((انه عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً وحديثاً حتى قال بعضهم: أعذب الشعر أكذبه، وكذلك ذهب فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم)) [٦٥].

لم يكن قدامة إذ يقرر الغلو والمبالغة والتخييل في الشعر صادراً عن المطالبة بالصدق كما كان موقف ابن طباطبا العلوي بل كان يرى أن الاحتكام في جودة الشعر إلى الصدق يؤدي إلى طرد الاستعارة منه لأن ((تعقب الاستعارة يعني التدخل في التشخيص والقدرة الخيالية لدى الشاعر)) [٦٦].

لقد أعتمد قدامة بن جعفر في موقفه المناقض لمبدأ الصدق في الشعر على الثقافة اليونانية. إذ كان أرسطو يرى أن: ((التشبيه والمحاكاة هي من مدائح الأشياء التي هي غاية في الفضيلة)) [٦٧]، وهذا يعني أنه يجوّز للشاعر أن يصف قوماً بالإفراط في الفضائل وهو ما ذهب إليه قدامة من أن الغلو في الشعر يراد منه المبالغة والتمثيل لا حقيقة الشيء ((والمبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية)) [٦٨].

لقد أباح قدامة بن جعفر الكذب للشاعر ولعله كان ناقلاً هذا الرأي عن الفارابي الذي كان مطلعاً على كتاب الشعر لأرسطو الذي ترجم إلى العربية وأصبح جزءاً من المنطق فوضعت الأقاويل الشعرية على صعيد واحد مع سائر الأقاويل التي جرى ذكرها في المنطق وقد نظر الفارابي في هذه الأقاويل على أساس الصدق. وكان الشعر لديه من الأقاويل الكاذبة بالكل لا محالة(٦٩).

ولعل قدامة كان ناقلاً عن الفارابي إذ قال (أحسن الشعر أكذبه) إلا أن لفظ الكذب عند قدامه لا يعني غضا من قيمة الشعر وإنما هي بمعنى التخييل وهي عنده لتمييز الأقاويل الشعرية عن غيرها من الأقاويل والتي لا يكون للصدق نصيب فيها. لذلك لا يصح أن نجعل من لفظ كذب تهويناً من شأن الشعر.

ومن النقاد الذين أشاروا إلى ظاهرة التشخيص وكان لهم موقف من هذه الظاهرة هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة). فقد ذكر هذه الظاهرة في كتابه الأول عندما تناول قول لبيد بن ربيعة:

وغداة ريح قد كشف وقِرّة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (٧٠)

وعلق الجرجاني على هذا البيت بقوله ((إنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شَبَهَ الإنسان قد أخذ الشيء بيده، يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد)) (٧١)، والجرجاني يخرج من ظاهرة التشخيص على انه نوع من الاستعارة

فالمسألة تتعلق بنقل اللفظ من الإنسان إلى شيء آخر قد أثبتوا فيه عضواً من أعضائه. من أجل إثباتهم له المعنى الذي يحققه ذلك العضو(٧٢). ومعلوم انه ليس هناك أمرٌ ثابت حسياً او عقلياً تجري اليد عليه، ولكنه لما شبه الشمال بالإنسان الذي يصرف أموره بيده. اثبت للرياح يدا على سبيل التخييل مبالغة في تشبيهها به. ومن الأبيات التي يذكرها الجرجاني والتي تتحقق فيها ظاهرة التشخيص بيت الحماسة ، لتأبط شرا :

إذا هزه في عظم قِرنٍ تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك(٧٣)

فالتشخيص يظهر عندما تخيل الشاعر ((وجعل المنايا تضحك وجعل لها الأفواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها))(٧٤). وكذلك يخرج الجرجاني بيت المتنبي على أنه من أسلوب التشخيص في قوله:

خميسين بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم(٧٥)

إنَّ الشاعر جعل الجوزاء تسمع وهذا تشخيص لأنَّ الشاعر وصفها بما يوصف الإنسان فأثبت لهذا النجم الأذن التي يكون السمع بها(٧٦).

وبذلك يكون الجرجاني قد تنبه إلى ظاهرة التشخيص وجعلها نوعاً من الاستعارة التي لا يمكن تحديد المشبه به فيها لأن الصور تتكون فيها من خلال التشخيص الذي يقوم على نقل المعنى وجعله بصورة إنسانية مخصوصة .

لقد تبين موقف الجرجاني النقدي من ظاهرة التشخيص في كتابه (أسرار البلاغة) فكان له معها موقفان: الأول يؤيد الظاهرة، ويشيد بها ويمتدحها. وفي الموقف الآخر لا يألو جُهداً في ذمها. ولعل السبب في موقفه هذا يستند إلى مرجعيات معرفية محددة لهذا الموقف. فهو حين يتناول بعض الأبيات التي تتضمن الظاهرة يلتفت إلى ما فيها من خيال واسع وقدرة على بث الحياة في المحسوسات والمعنويات . ومن تلك الأبيات قول الشاعر:

إذا أصبح الديك يدعو بعض أسرته عند الصباح وهم قومٌ معازيلُ

فالجرجاني يؤيد الشاعر في استعماله لظاهرة التشخيص في ضوء أعطاء الاستعارة شبهاً مما يعقل ((وذلك أن الشاعر لم يجتلب الاسم المخصوص بالآدميين حتى قدم تنزيلها منزلتهم فقال (هم) فأتى بضمير من يعقل . وإذا كان الأمر كذلك كان (القوم) جارياً مجرى الحقيقة)) [٧٧] وبهذا يتضح توفيق الشاعر من استعمال ضمير العاقل قبل استعمال اللفظ الذي أفاد تشخيص الديك مع أسرته.

إنَّ إثبات حكم ما يعقل لغير العاقل لا يقتصر على استعمال ضمير العاقل بل يجري مجرى التصريح، يتضح ذلك في تعليق الجرجاني على بيت المتنبي :

زحل – على أن الكواكب قومه – لو كان منك لكان أكرم معشرا

فالشاعر يشخص الكوكب (زحل) إلا أنه لم يثبت حكم العاقل بواسطة استعمال الضمير. فلم يقل (هم قومه) كما في البيت السابق، بل أجرى الشاعر حكمه مجرى التصريح بذلك لأن وجه المدح في هذا البيت لا يتضح ، لأنه يفاضل بين الممدوح وبينها بدلالة قوله: (لكان أكرم معشرا) فالوصف الشريف متحصل من كون الكواكب تعقل وتميز [٧٨].

فالجرجاني في هذا الموقف يؤيد الظاهرة ويرجح جودتها إلى حسن المعنى وإنما تركيب ألفاظها فيقول: ((فأنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة. والمعاني الخفية بادية جلية)) [٧٩] .

لكن الجرجاني يقف موقفاً مناقضا لهذا الموقف من هذه الظاهرة فهو يعيب التشخيص عندما يكون ((الشبه مأخوذاً من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه)) [٨٠].

فالجرجاني يريد من هذه الظاهرة أن تتحقق عن طريق اختلاف الصفة المستعارة والمشتركة بين جنسين مختلفين. فاختلاف الجنس لا يكفي لتحقيق جودة الظاهرة كما في جنس الإنسان وجنس الشمس عندما تقول (رأيت شمساً) وأنت تريد إنساناً يتهلل وجههُ كالشمس. فالصفة هنا واحدة لأن التهلل موجود في نفس الإنسان المتهلل،لأن رونق الوجه الحسن مجانس لضوء الأجسام النيرة[٨١] .

إن اختلاف الرؤية حول ظاهرة التشخيص عند الجرجاني يعود إلى جذور ثقافية حددت موقفه من قضية اللفظ والمعنى ومن ثم حددت موقفه من الشعر إذ إن الجرجاني يعد الصورة الشعرية في المعنى الصياغي وليس في اللفظ، فقال إن المعاني تنقسم على قسمين[٨٢]. معانٍ عقلية ومعانٍ تخيلية.

فالمعاني العقلية هي المعاني التي يشهد العقل بصحتها ومجراها في الشعر مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء، والفوائد التي تثيرها الحكماء. لذلك تجد أكثر هذا القسم من المعاني منتزعاً من أحاديث الأنبياء وكلام العلماء والصالحين، ومنقولاً من آثار السلف الذين من شأنهم الصدق وقصدهم الحق.

أما المعاني التخيلية فهي التي لا يمكن أن يقال إنَّ الكلام فيها صدق وإنَّ ما أثبتته ثابت. وما نفته منفي. وتكون هذه المعاني على درجات فمنها ما تكون مصنوعة. قد تلطف في استعمالها وتفنن فيها بالرفق والحذق حتى تعطى شبهاً من الحق، ويغشاها رونقاً من الصدق.

فالجرجاني هنا يشيد بأهمية التخييل من الناحية الفنية، ومن المعلوم أن ظاهرة التشخيص من المعاني المتخيلة. فعلى الرغم من أنه لم يشر إلى ما فيها من بث الحياة في المحسوسات إلا أنه بدا معجباً بما فيها من الخيال كقول الشاعر:

وحاربني فيه ريب الزمان كان الزمان له عاشق

فالجرجاني يشيد بهذا القول لأن الشاعر أثبت محاربة الزمان له في معنى الحبيب وجعل الدليل على جواز هذه المحاربة عن طريق تشخيص الزمان ليكون شريكا له في عشقه[٨٣] ولا شك أن الشاعر كان ذا قدرة خيالية في ابتكار هذا المعنى.

ومع إعجاب الجرجاني بهذه الظاهرة. إلا أنّه يرفضها إذا دخلت حيّز التخييل اللامعقول عندما يحاول الشاعر عن طريق الخيال إثبات أمراً هو غير ثابت أصلاً. ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها مالا ترى [٨٤].

إن الجرجاني في موقفه هذا يريد أن يخرج الاستعارة من التخيل وخاصة الاستعارات القرآنية التي تتضمن ظاهرة التشخيص ويدخلها في باب التشبيه لكي تتحقق المطابقة بين ما يقوله وبين ما يعتقده في الذات الإلهية من عدم التجسيم لذلك يقول ((إنَّ الاستعارة لا تدخل في قبيل التخيل لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنّما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثير في التنزيل على ما لا يخفى)) [٨٥]، وبهذا يكون الجرجاني قد ((عاش صراعاً عنيفاً مع نفسه إزاء هذه المسألة. فهو من جهة: مسلمٌ، مؤمنٌ، حريصٌ على أن لا يتهم في دينه بالخداع العقلي. فأبعد الاستعارة عن الخيال والتخييل. وهو من جهة: ناقدٌ، أديبٌ، لذت له الابتكارات الشعرية والتوصلات النقدية التي تتحرّف عن الحقيقة الخالصة)) [٨٦] لذلك نراه ((يقيم الدليل العقلي على سلامة إسناد الفعل التشخيصي للطبيعة مع انه من أفعال الله سبحانه وتعالى)) [٨٧]. لأنه جاء في القرآن الكريم فيقول في هذه المسألة: ((وإذا علمت أن طريق الحقيقة في إثبات الفعل للشيء هو العقل، فينبغي أن تعلم انَّه أيضاً الطريق إلى المجاز فيه فكما أنَّ العقل هو الذي دلك حين قلت (فعل الحي القادر) إنك لم تتجوّز وإنك واضع قدمك على محض الحقيقة، كذلك ينبغي أن يكون هو الدال والمقتضي إذا قلت "فعل الربيع" أنك قد تجوزت وزلت عن الحقيقة)) [٨٨]، وبذلك يكون السبب العقدي والديني وراء موقف الجرجاني هذا.

وجملة الأمر أن ظاهرة التشخيص عند الجرجاني هي أحد المسائل التي تتحقق بالتخييل. وأن التخييل يتيح للشاعر باباً من الاتساع في المعاني .

وتتحقق في ضوء التخيل جودة الشعر إذ إن الشعر يكفي فيه التخييل وهو قول من أراد أن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً إلا إذا مدت الصنعة باعها ونشرت شعاعها وأتسع ميدانها وتفرعت أفنانها وهذا يعتمد الاتساع والتخيل ولا يتحقق إلا إذا ذهبنا بالقول مذهب المبالغة والإغراق وهناك يجد الشاعر سبيلاً للإبداع واختراع الصور[٨٩]. لذلك قال بعضهم (خير الشعر أكذبه). والمراد بالشعر الكاذب هنا إعطاء الممدوح حظاً من الفضل وجانباً من التعظيم يجاوز به . وهذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية كما قال البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يكفي عن صدقه كذبه [٩٠]

والصدق لا يتيح مثل هذا الاتساع للشاعر، غير أنَّ الجرجاني إذا أراد أن يفاضل بين المذهبين فإنه يفضل الشعر الذي يقوم على الصدق فيقول ((والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول[الصدق] وتقديمه وتفخيم قدره وتعظيمه وما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده فهو العزيز جانبه والمنبع مناكب وقد قيل الباطل مخصوم وان قضي له، والحق مفلج وإن قضي عليه)) [٩١].

ولا عجب أن يفضل الجرجاني مبدأ من قال (خير الشعر أصدقه) لأن المراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل وكل ما يشهد بصحته العقل هو مراد الجرجاني وهو المتكلم الأشعري. ومعلوم أن المتكلمين ينظرون إلى الأشياء بعقولهم ولا يميلون إلى الجموح والخيال لذلك فهو يرى أنَّ من قال خير الشعر أصدقه. كان قد ترك المبالغة والإغراق إلى الصحيح والحقيقي واعتمد ما يجري من العقل على أصل صحيح[٩٢].

نستنتج هنا أنَّ القدماء توصلوا إلى جمالية إضفاء الصفات الإنسانية على الكائنات الجامدة والمتحركة والأمور المعنوية وتذوقوا هذه السمة الفنية بمستوى كبير وكشفوا دلالات هذا الفن الذي يبث الروح الإنسانية في الكائنات غير الإنسانية على الرغم من اختلاف تسمياتهم لهذا الفن إلا أنَّهم قدموا عملاً رائعاً ومؤيداً بالشواهد التي تبين موقفهم من الظاهرة، وتحمد لهم وفرة الجهود النقدية من ظاهرة التشخيص كما مر بنا في هذا البحث. ويبدو أنهم ظلوا يعبرون عن هذه السمة بالاستعارة والمجاز تقديساً للنص القرآني وتنزيهاً للذات الإلهية وذلك عند تعرضهم للآيات التي تتضمن أسلوب التشخيص.

خاتمة البحث

إنَّ الدلالة الاصطلاحية لمصطلح التشخيص لم تخرج كثيراً عن الدلالة اللغوية وقد اشتق من فعل شخص الذي يدل على الوضوح والظهور والشخص التي تخص الإنسان.
فالتشخيص هو إضفاء صفات الإنسان على الجمادات والحيوانات باستعارات مكنية، وهو يختلف عن التجسيم الذي هو إضفاء صفات مادية لكل ما هو معنوي غير مدرك فتخرجه من عالم التصور إلى عالم الإدراك وكذلك يختلف التشخيص عن التجسيد الذي هو المسمى الثاني للتجسيم.

إنَّ القدماء توصلوا إلى جمالية التشخيص وكشفوا دلالات هذا الفن الذي يبث الروح الإنسانية في الكائنات غير الإنسانية على الرغم من اختلاف تسمياتهم لهذا الفن إلا نهم قدموا تصورا كاملاً عن هذه الظاهرة. ومؤيداً بالشواهد التي تبين موقفهم منها، وذلك في مناسبات متعددة من بحوثهم البلاغية فقد عبروا عنه بالاستعارة والمجاز في كثير من الشواهد .

كذلك كان للقدماء جهودٌ وافرة في تناول هذه الظاهرة ولكنهم ظلوا يعبرون عن هذه السمة بالاستعارة والمجاز تقديساً للنص القرآني فلم يذكروا مصطلح التشخيص، أو التجسيم.

يحقق التشخيص سمة مميزة في القول، وهي المبالغة والغلو في الوصف، وهذه السمة تعد علامةً من علامات الجودة في الكلام، إذ إنَّه يترك أثراً جميلاً في قلب سامعيه.

الهوامش

---

(١) جمالية المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ، أحمد ياسوف : ١٤١.

(٢) ينظر : دراسات في علم النفس الأدبي ، حامد عبد القادر : ١١٢.

(٣) ينظر : كتاب العين(مادة شخص) . وينظر : المادة نفسها في لسان العرب ٩٩/١٢.

(٤) ينظر: لسان العرب(مادة شخص) : ٩٩/١٢ .

(٥) المعجم الوسيط:(مادة شخص) ٤٧٨/١.

(٦) ينظر : القاموس المحيط .(مادة شخص)

(٧) المعجم الأدبي. جبّور عبد النور : ٦٧ .

(٨) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مجدي وهبة، كامل مهندس: (مادة تشخيص)

(٩) المصدر السابق(مادة شخص)..

(١٠) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. سعيد علوش (مادة شخص) : ١٢٦.

(١١) ينظر : التصوير الفني في القرآن . سيد قطب: ٦٣.

(١٢) ينظر:المصدر السابق:٥٧.

(١٣) ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : ١٨.

(١٤) ينظر: قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري. د. محمود عبد الله الجادر:٧٢.

(١٥) شرح ديوان الحماسة . المرزوقي : ٢٣٦/٢.

(١٦) ديوان حسان بن ثابت . تحقيق سيد حنفي حسنين: ٢٩٤.

(١٧) النحل:٤٤.

(١٨) ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي . تحقيق نوري حمودي القيسي : ١٨٥ .

(١٩) ديوان المتنبي. شرحه وقدم له: علي العسيلي:٣٠٣ . الخميس: الجيش، الجوزاء: نجمان في جوز السماء أي وسطها، الزماوم: صوت الرعد.

(٢٠) هو السريُّ بن احمد السريُّ الكندي ويكنى ابا الحسن ويعرف بالسري الرفاه لأنه كان يرفو الثياب ويطرزها في صباه. ينظر: يتيمة الدهر:١١٧/٢.

(٢١) التكوير:١٨.

(٢٢) الأعراف: ١٥٤.

(٢٣) الملك:٧

(٢٤) ق:٣٠.

(٢٥) الاسراء : ٣٦.

(٢٦) يوسف :٤.

(٢٧) مجاز القرآن : أبو عبيدة. تحقيق:محمد فؤاد سنكرين : ١٠.

(٢٨) الأنبياء: ٣٣.

(٢٩) فصلت:١١.

(٣٠) ينظر : تأويل مشكل القرآن:ابن قتيبة . تحقيق: أحمد صقر: ٧٨.

(٣١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:ابن الأثير.تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد : ٣٦٣/١.

(٣٢) .الملك:٧ ـــــــ ٨

(٣٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: تحقيق.محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام: ٨٠.

(٣٤) ينظر: جمالية المفردة القرآنية في كتب الإعجاز . أحمد ياسوف : ١٤١.

(٣٥) الإيجاز والإعجاز : عبد الملك بن محمد الثعالبي : ١٩-٢٠ .

(٣٦) البديع، عبد الله ابن المعتز:٤.

(٣٧) عيار الشعر . ابن طباطبا العلوي :تحقيق: طه الحاجري ، محمد زغلول سلام : ٩.

(٣٨) . ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية . مجيد عبد الحميد ناجي : ١٧٨ .

(٣٩) ينظر: موقف القرآن الكريم من الشعر العربي : عناد غزوان: ٢٤.

(٤٠) الشعراء :٢٢٤ ـــــــــ٢٢٦

(٤١) ينظر: الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز. مجيد عبد الحميد ناجي:٩.

(٤٢) الخطابة . ارسطوطاليس، ترجمة: عبد الرحمن بدوي: ٢٢٠.

(٤٣) ينظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب . إحسان عباس: ٢١٤.

(٤٤) ينظر : طبقات الأطباء : ٦٠٩.

(٤٥) ينظر : رسالة في قوانين صناعة الشعر. ضمن كتاب فن الشعر : ١٥٠ .

(٤٦) فن الشعر . ترجمة : إحسان عباس : ١٦١ .

(٤٧) الأسس النفسية للأساليب البلاغية العربية : مجيد عبد الحميد : ١٧٨ ..

(٤٨) البيان والتبيين. الجاحظ، تحقيق: عبد ا لسلام هارون: ٨١/١..

(٤٩) المصدر السابق: ٨٢/١

(٥٠) ينظر: المصدر السابق: ٨١/١-٨٣.

(٥١)الحيوان .الجاحظ، تحقيق: عبد السلم محمد هارون: ٢٨٧/٥.

(٥٢) ينظر: ضحي الإسلام، أحمد أمين: ٢٠٤/٣.

(٥٣) طه:٥

(٥٤) الفتح :١٠

(٥٥) عيار الشعر:ابن طباطبا.تحقيق طه الحاجري ، محمد زغلول سلام : ١١٩.

(٥٦) ينظر: المصدر السابق: ١٢٠.

(٥٧) المصدر السابق: ١٢٠.

(٥٨) الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي: سعيد عدنان:١٤٩ .

(٥٩) نقد الشعر: قدامة بن جعفر. تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي : ١٧٥.

(٦٠) ديوان أمرؤ القيس : ١٨ .

(٦١) نقد الشعر : ١٧٦.

(٦٢) خزانة الادب: ٥٨٤/٤. وديوان المعاني:٣٣/١.

(٦٣) نقد الشعر: ١٩٩.

(٦٤) المصدر السابق: ٦٥.

(٦٥) المصدر السابق: ٥٤.

(٦٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ١٦٨.

(٦٧) فن الشعر: ١٧.

(٦٨) نقد الشعر: ١٠٠.

(٦٩) ينظر : رسالة في قوانين صناعة الشعر . ضمن كتاب فن الشعر: ١٥١.

(٧٠) (كشفت)؛ هزمت وازيلت وتغلبت عليها. (قِرّة) بالكسر: البرد وما يصيب الإنسان وغيرة منه.

(٧١) دلائل الإعجاز :الجرجاني. تحقيق محمد رشيد رضا : ٣٣٤.

(٧٢) ينظر: المصدر السابق: ٣٣٤-٣٣٥.

(٧٣) القِرن بالكسر: المثل او الكفؤ. وتهللت : لاحت وظهرت من البشر والسرور.

(٧٤) دلائل الإعجاز ٣٣٥.

(٧٥) الزمام: يراد هنا صوت الرعد.

(٧٦) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٣٥.

(٧٧) أسرار البلاغة:الجرجاني .تحقيق محمد رشيد رضا : ٣١.

(٧٨) ينظر: المصدر السابق: ٣١.

(٧٩) المصدر السابق: ٣٣.

(٨٠) المصدر السابق: ٤٦.

(٨١) ينظر: المصدر السابق: ٤٦ــــــ ٤٧.

(٨٢)ينظر: المصدر السابق: ٢٢٨ ــــ٢٣١.

(٨٣) ينظر: المصدر السابق: ٢٤٣.

(٨٤) ينظر: المصدر السابق: ٢٣٩.

(٨٥) المصدر السابق : ٢٣٨.

(٨٦) نظريات الشعر عند العرب – الجأهلية والعصور الإسلامية : مصطفى الحوزوي : ١٢٧.

(٨٧) الاستعارة في التراث البلاغي النقدي عند العرب: فاضل عبود خميس : ١٢٠.

(٨٨) أسرار البلاغة : ٣٥٨.

(٨٩) ينظر:المصدر السابق: ٢٣٥ ــــــ ٢٣٧.

(٩٠) ديوان البحتري : تحقيق حسن كمال الصيرفي ٢٠٩/١.

(٩١) أسرار البلاغة : ٢٣٧.

(٩٢) ينظر: المصدر السابق: ٢٣٧.

مصادر البحث

- الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي. سعيد عدنان، دار الرائد العربي، بيروت ـــــ لبنان،الطبعة الأولى، ١٩٨٧.
- الأثر الاغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز. مجيد عبد الحميد ناجي، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، مطبعة الآداب- النجف الأشرف، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- الاستعارة في التراث البلاغي النقدي عند العرب. فاضل عبود خميس التميمي، رسالة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة، كلية التربية/ الجامعة المستنصرية، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- أسرار البلاغة في علم البيان، الامام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، صححها على نسخة الشيخ محمد عبده: السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٨٨م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- الايجاز والاعجاز، عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، دار الغصون، لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.
- البيان والتبيين، عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ـــــ القاهرة، ط٥، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، الدكتور احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الاردن، ١٩٨٦م .
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، دار احياء الكتب العربية، (د. ت).
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، بيروت، (د. ت).
- ثلاث رسائل في علوم القرآن: الرماني (٣٨٤هـ) والخطابي (ت٣٨٨هـ) والجرجاني (ت٤٧١هـ ـــ)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف ـــــ مصر، ١٩٧٦م.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (د. ت).
- جمالية المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ، أحمد ياسوف .
- الخطابة، ارسطو طاليس، الترجمة العربية القديمة، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بدوي، الناشر: وكالة المطبوعات- الكويت، دار القلم، بيروت- لبنان، ١٩٧٩م.
- دراسات في علم النفس الأدبي، الدكتور حامد عبد القادر، المطبعة النموذجية ، القاهرة، ١٩٤٩م.
- دلائل الاعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ)، صححه على نسخة الشيخ محمد عبده، والأستاذ الشنقيطي: الشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـــــ لبنان، ١٩٧٨م.

❖ ديوان امرئ القيس (ت٥٤٠م)، تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم، ذخائر العرب، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٩م.
❖ ديوان البحتري (ت٢٨٤هـ)، عُنِيَ بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، مطابع دار المعارف بمصر،(د. ت).
❖ ديوان حسان بن ثابت (ت٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور سيد حنفي حسنين، مراجعة: حسن كامل الصيرفي، طبع وزارة الثقافة، الهيئة العامة، ١٩٧٤م.
❖ ديوان الحماسة، وهو ما اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ)، من أشعار العرب، شرح العلامة التبريزي، دار القلم، بيروت- لبنان، (د. ت).
❖ ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي (ت١٢٦هـ)، عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني (ت٢٩١هـ)، تحقيق: الدكتور نوري حمودي القيسي، والدكتور حاتم صالح الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
❖ ديوان المتنبي. شرحه وضبطه وقدم له: علي العسيلي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت ـــــ لبنان،٢٠٠٥م.
❖ ديوان المعاني، الامام اللغوي الأديب أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، عن نسخة الامامين العظيمين: الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، مع مقابلة المشكل بنسخة المتحف البريطاني، عالم الكتب، (د. ت).
❖ رسالة في قوانين صناعة الشعر . ضمن كتاب فن الشعر. ابو نصر الفارابي(ت٣٣٩ه)، (من ص١٤٩ ـــــ ص ١٥٨) تحقيق: عبد ارحمن بدوي، القاهرة،١٩٥٣م.
❖ شرح ديوان الحماسة، أبو علي بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت٤٢١هـ)، نشره: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، طبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٢م.
❖ طبقات الأطباء .
❖ ضحي الإسلام، أحمد أمين. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة، ١٩٥٦.
❖ عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور طه الحاجري، الدكتور محمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، مصر، ١٩٥٦م.
❖ فن الشعر، الدكتور احسان عباس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، مطبعة قلفاط، بيروت، ١٩٥٥م.
❖ القاموس المحيط، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت٨١٧هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
❖ قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري. د. محمود عبد الله الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة ـــــ بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م .

❖ كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، تحقيق، الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور ابراهيم السامرائي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، طباعة شركـــة المطابع النموذجية، عمان- الأردن، ١٩٨٢م.
❖ لسان العرب، العلامة ابن منظور (ت٧١١هـ)، معجم لغوي علمي، قدم له: العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي، اعداد وتصنيف: يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، د. ت.
❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، قدمه وحققه وعلق عليه: الدكتور أحمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانه، مطبعة نهضة مصر، الفجالة- القاهرة، ط١، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م.
❖ مجاز القرآن، خصائصه الفنية وبلاغته العربية، الدكتور محمد حسين علي الصغير، وزارة الثقافة والاعلام، طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٤م.
❖ المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.
❖ معجم المصطلحات الأدبية، الدكتور سعيد علوش، دار الكتـــاب اللبناني، بيروت- لبنان، سوشبريس، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
❖ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، طبع في لبنان، ١٩٧٩م.
❖ المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – الادارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، اخراج ابراهيم مصطفى – احمد حسن الزيات – حامد عبد القادر – محمد علي النجار – نشر: دار الدعوه، استانبول – تركيا ١٩٧٤.
❖ موقف القرآن الكريم من الشعر العربي. عناد غزوان.، بحث في مجلة الأستاذ، كلية التربية مجلد(١٥) سنة:١٩٦٧ ـــــ١٩٦٨.
❖ نظريات الشعر عند العرب- الجأهلية والعصور الإسلامية-، الدكتور مصطفى الجوزو، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
❖ نقد الشعر: قدامة بن جعفر. تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي .دار الكتب العلمية، بيروت ـــــ لبنان.(د،ت)
❖ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩ه) ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ، ١٩٦٨م .